1. مقدّمة:

أحدثَ ظهور كتاب "دروس في اللسانيات العامة" للساني السويسري الشهير "فرديناند دي سوسير" (Ferdinand de Saussure) ثورةً في مجال الدراسات اللغوية في العصر الحديث، نظرا للقطيعة التي أحدثها مع الدراسات التاريخية والمقارنة للغة، ليؤسّس بذلك ما يعرف فيما بعد بـ "اللسانيات البنيوية" والتي تنظر إلى الظاهرة اللغوية كبنية مغلقة مكتفية بذاتها، هذه النظرية كان لها تأثير كبير على حقول معرفية مختلفة شأن: الأنتروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع.

لكنّ التأثير الأكبر للسانيات كان على حقل الدراسات الأدبية؛ بحكم أنّ الأدب يعتمد بالدرجة الأولى على اللغة، فمنذ أن ظهرت نظرية "البنية" في اللسانيات عرفت الدراسات الأدبية توجها جديدا وقويا لم يتوقف مدّه إلى اليوم، ويتجلى هذا التأثير بصورة واضحة في مجال التنظير، أي: الشّعرية (Poétique) أو ما يسمّيه "رينيه ويليك" النظرية الأدبية؛ والتي تعرّف بأنّها "محاولة وضع نظرية عامة مجرّدة ومحايثة للأدب بوصفه فنّا لفظيا، إنّها تستنبط القوانين التي يتوجه الخطاب اللغوي بموجبها وجهة أدبية." وقد بدأت هذه الجهود النظرية في العصر الحديث مع الشكلانيين الروس.

2. الشّكلانيون الرّوس وتأسيس علم الأدب

حاول الشكلانيون الروس تأسيس علم للأدب؛ وهو ما أطلقوا عليه فيما بعد مصطلح "الشعرية" Poétique وهذا لتخليص الأدب من براثن الإيديولوجيا التي فرضت نفسها على النقد الأدبي زمنا طويلا. لذلك ركّز الشكلانيون على أطروحتين أساسيتين هما:

- تشديدهم على الأثر الأدبي وأجزائه المكوّنة.
- إلحاحهم على استقلال علم الأدب.

لكي تتحقّق الدراسة العلمية للأدب استند الشكلانيون إلى اللسانيات السوسيرية، فإذا كانت اللسانيات هي الدراسة العلمية للغة، فإنّ الشعرية هي الدراسة العلمية للأدب، فقد رأى الشكلانيون بأنّ المنهجية اللسانية هي الكفيلة بضمان شروط العلم الأساسية وهي: الموضوعية والدّقة والصرامة المنهجية. وقد انصبّ اهتمام الشكلانيين الرّوس منذ البداية على دراسة المظهر اللساني للشعر، وما ميّز عملهم بعد هذا التوجه البارز أنهم أعطوا أهميّة خاصة للتصنيف والنمذجة والوصف الدقيق المفصّل للأعمال الأدبية، ووضع المصطلح التقني الذي يعبّر عن ذلك، وهو الأمر الذي منحَ عملَهم صبغة علمية وموضوعية بارزة، وشكّل الأسس الأولى لعلم النص الأدبي الحديث.

لقد اهتمّ الشكلانيون بالأشكال والبنيات كأنظمة أو أنساق مغلقة، وهو ما مكّنهم من استنباط النموذج العام الذي يحكم الأنواع الأدبية، وخيرٌ مثال على ذلك: فلاديمير بروب (Vladimir *Propp*) الذي انطلق من الفكرة الشكلانية في كتابه "مورفولوجيا الحكاية الشعبية" 1928، وهو يعدّ أول محاولة لتشخيص المخططات

السردية في حكايات الجن الروسية، والكشف عن الوظائف كعناصر مستمرة في الحكاية الشّعبية، مع أنّ بروب احتفظ بكونه باحثا فلكلوريا.

لعلّ أبرز تأثير للسانيات على الشعرية بوصفها تنظيرا للأدب يتجلى من خلال المشروع الذي جسّده اللساني الروسي الشهير "رومان ياكوبسون" (Roman Jakobson) الذي يعدّ أبرز المؤسسين لحلقة موسكو اللسانية، وبعد رحيله من روسيا انتقل إلى تشيكوسلوفاكيا وأمضى فيها ثمانية عشر (18) عاما، وهناك ساهم في تأسيس حلقة براغ اللسانية، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1941م وهو لساني مختص بالسلافيات. وفي السنوات التالية وجّه اهتمامه إلى قضايا التحليل الأدبي، وبالضبط إلى "قواعد الشعر" وكان عمله جسرا إلى البنيوية الفرنسية الجديدة

3. البنيوية الفرنسية؛ المرجعية السوسيرية والتأثير الشكلاني

إنّ الهدف العلمي الذي نادت به الشكلانية هو الذي شكل الأساس النظري للبنيوية الفرنسية مع "كلود ليفي ستراوس" (Claude Lévi-Strauss) و"رولان بارت" (Roland Barthes) و"جيرار جنيت" (Gerard Genette) و"جون كوهين" (Jean Cohen) وآخرين.

اتّجه كلود ليفي ستراوس إلى اللسانيات البنيوية من أجل الوصول إلى الدّقة العلمية في دراسة الأنساق الاجتماعية، هذه الدقّة التي تفتقدها الكتابات التقليدية في الأنتروبولوجيا، فقد حاول تصنيف فئات القرابة المحتملة بنفس الطريقة التي اتبعها اللساني "رومان ياكوبسون" في تصنيف الأبنية الفونولوجية. لذلك يعدّ "ستراوس" باحثا ملتزما بالبنيوية بشكل مطلق وصريح، إذ يتميز باتّساق منهجه وبعقلانيته وبالمباشرة في نقل مكتشافاته وأفكاره إلى قرائه. فهو يعتقد بأنّ المنهج الذي اتبعه هو الذي مكّنه من جعل المعطيات التجريبية حول مؤسسات القرابة والطوطمية والأسطورة أقرب إلى الفهم أكثر من أيّ وقت مضى، وقد انتهى بعد تفسيره لهذه المعطيات إلى تحديد ما يعتبره الصفات التي يختص بها الفكر البشري عامة. وبهذه الجهود يكون "ستراوس" قد أرسى قواعد البنيوية في فرنسا.

وكذلك يعدّ "رولان بارت" من الرواد الأوائل الذين اشتغلوا بالتأسيس للبنيوية الأدبية في فرنسا معتمدا في ذلك على اللسانيات البنيوية والمفاهيم الشكلانية، رغم أنّ بارت يصعب تصنيفه فقد جمع بين المفاهيم البنيوية والسيميائية والتفكيكية والتأويلية والثقافية، كما اشتغل بالتنظير لعلم النص، ويعدّ تحليله المطوّل لقصة "سارازين" Sarrasine لبلزاك مثالا واضحا عن تأثير المفاهيم السوسيرية في نظرية الأدب الحديثة، فقد اعتمد في تحليله للقصة على تقطيع القصة إلى عدد كبير من الوحدات التي سماها وحدات قرائية، مع مناقشته للقصة سطرا سطرا بدءا بتحليل العنوان.

4. البنيوية الفرنسية وطموح العالمية:

التقت لسانيات "دي سوسير" التي أكّدت على النسق والبنية مع اكتشافات الشكلانية الروسية فأدّت إلى ظهور حركة واسعة في فرنسا عرفت باسم "البنيوية"، وقد لاقت هذه الحركة رواجا كبيرا في أوساط الأكاديميين والمثقفين الذين اجتهدوا

في التعريف بهذا الاكتشاف الجديد، وقد أعلن "تزفتان تودوروف" (Tzvetan Todorov) في ندوة ما هي البنيوية Qu est– ce que le structuralisme?" 1968 " أنّ الشعرية الجديدة قد أقامت نظاما شاملا كاملا أو علما أدبيا على غرار العلم اللغوي، فالأدب اعتبر جزءا من اللغة مغلقا ذاتيا.

تفترض البنيوية وجود نظام يحكم العالم والأشياء، والنظام أو النسق العام هو ما تحاول البنيوية الوصول إليه (استنباطه)، ثم القيام بعد ذلك وفي اتجاه معاكس بتطبيقه على الأنساق الصغرى (النصوص الفردية). وهنا يتجلى التطابق بين البنيوية والشعرية التي تبحث في القواعد والخصائص العامة التي تحكم الإبداع، حيث يقع استنباطها على عاتق المنظّر أو الباحث البويطيقي، أما تطبيق تلك القواعد المستنبطة على النصوص الفردية فمجالها النقد الأدبي.

يرى "تودوروف" أنّه لا يمكن للشعرية إلا أن تكون بنيوية وإنّ كلّ الشعريات تظل بنيوية ما ظلّ موضوعها ليس حاصل جمع الظواهر التجريبية (الأعمال الأدبية) وإنّما البنية المجردة نفسها وهي الأدب، ومن الطبيعي أن تكون إنجازات اللسانيات الحديثة (دوسوسور وأتباعه) حاسمة في تشكيل أهداف الشعرية وتحديد مجالها الوظيفي.

إذا كانت اللسانيات البنيوية علما وصفيا، فإنّ الشعرية البنيوية وصفية كذلك، حيث تهدف إلى الملاحظة والتصنيف وتحديد المميزات التي نجدها في الوسائل اللغوية المستخدمة في الأدب. وقد منحت الدراسةُ العلمية للغة التي افتتح بها "دي سوسير" القرن العشرين الشرعية للنقلة العلمية من ناحية، والنموذج الذي يمكن نقله من الدراسات اللغوية إلى التحليل الأدبي من ناحية ثانية، وقد جمع ليفي ستراوس بين الإنجازين في منتصف الخمسينيات. وهكذا قدّمت البنيوية نفسها إلى العالم باعتبارها دراسة علمية للأدب.

وإذا كانت اللسانيات علما لاعتمادها على النموذج التجريدي العام الذي يمكن تطبيقه على أيّ لغة من لغات العالم، فإنّ البنيوية تسعى إلى العلمية من خلال محاولة استكشاف واستنباط النموذج العام والكلي الذي يحكم الخطاب الأدبي، نموذج ذو صبغة عالمية يمكن تطبيقه على أيّ نص أدبي في العالم، وبناء على ذلك يمكننا القول إنّ الشعرية تحمل في طياتها مشروع عولمة الأدب.

يعتقد البنيويون أنّ البُنى الكلية هي ما يحقق للمشروع البنيوي عالميته مقارنة باتجاهات ومشاريع نقدية أخرى تتسم بالشعوبية والعرقية، إنّها مشروع ضد القومية وضد كل ألوان الفردية، فالنموذج البنيوي العام للأسطورة الذي وضعه "كلود ليفي ستراوس" يقبل التطبيق على النصوص الفردية/ الأسطورية على اختلاف انتماءاتها القومية. وكذلك النموذج المورفولوجي الذي وضعه فلاديمير بروب للخرافة يقبل التطبيق على أيّ حكاية خرافية في العالم على اختلاف شعوبه. والحكم ذاته ينطبق على النموذج العام الذي صاغه "جيرار جنيت" للنصوص السردية في الصور

الثلاث (Figures I,II,III) إذ يمكن تطبيقه على أيّ نص سردي في العالم مهما كانت لغته، كما أنّ التصور الذي وضعه "جنيت" للتعالي/ التفاعل النصي يبدو نموذجا تعليميا قابلا للتطبيق على النصوص الفردية في مختلف الآداب.

غير أنّ هذه النزعة العلمية والطموح العالمي اللذين تنشدهما الشعرية البنيوية قد جرّا عليها نقدا؛ حتى من قبل الذين اعتنقوا البنيوية في بداياتهم، ومن هؤلاء "رولان بارت" الذي توصل في مقاله المعنون بـ "العلم ضد الأدب" المنشور في ملحق التايمز إلى نتيجة مفادها أنّ الكتابة هي قلب للخطاب العلمي، الكتابة متعة ومنح للمتعة، فهو يرفض العلم والعلمانية. من جهته وجّه "رينيه ويليك" نقدا للبنيوية إذ يرى أن الأدب ليس لغة فقط وليس نظاما منفردا للعلاقات الداخلية؛ وإنّما هو تطوير ضخم وتنوع متغير ممتد عبر مساحات ضخمة من الزمان والمكان.

5. خاتمة:

نستنتج ممّا سبق أنّ العلاقة بين البنيوية الغربية الحديثة بوصفها نظرية أدبية واللسانيات البنيوية بوصفها نظرية للغة هي علاقة وطيدة. ويتجلى ذلك في إفادة البنيوية من أهم المفاهيم اللسانية التي جاء بها "دي سوسير" وفي مقدّمتها البنية أو النظام وكذا استنادها إلى مبدأ المحايثة والنظرة التقابلية (الثنائيات السوسيرية)، وأهم من ذلك أنّ اللسانيات تمنح الشعرية مشروعية لتحديد موضوعها بوصفها علما للأدب.

غير أنّ تبعية البنيوية للسانيات لم تكن مطلقة، فقد سعت الشعرية البنيوية في فرنسا إلى تجاوز المنهجية اللسانية الصارمة من خلال محاولتها الانفتاح على قضايا تتعلّق بالتاريخ الأدبي والواقع والقراءة والجمالية، وقد تجلى هذا الانفتاح بصورة واضحة في أعمال الباحث الفرنسي "جيرار جنيت". ورغم محاولات التجاوز أو الانفتاح هذه، لم تستطع الشعرية التخلص الكلي من المقولات والمفاهيم الأساسية للسانيات البنيوية التي أصبحت فيما بعد قواعد أساسية راسخة بالنسبة للنظريات التي تلت البنيوية، بل إنّ بعض النظريات لم تتخلص من البنيوية حتى على مستوى التسمية، فهناك: السيميائية البنيوية والبنيوية التكوينية والأسلوبية البنيوية، وحتى نظريات "ما بعد البنيوية" التي طوّرها باحثون ومنظرون كانوا منضويين تحت مظلة البنيوية نفسها.

8.أهم المراجع:

1- "Théorie de la littérature. Textes des formalistes Russes " Traduits par: Tzvetan Todorov. Ed seuil. Paris, 1965, P15.

2- أحمد أبو زيد، مدخل إلى البنائية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 1995.

3- جون ستروك، البنيوية وما بعدها (من ليفي شتراوس إلى دريدا)، تر: محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، ع206، فبراير 1996.

4- جيزيل فالانسي، النقد النّصي، ضمن كتاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تر: رضوان ظاظا، عالم المعرفة، الكويت، ع221، 1997.

5- حسن ناظم: مفاهيم الشعرية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994.

6- رينيه ويليك: الهجوم على الأدب، تر: حنا عبود، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2000.
7- عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، عالم المعرفة، الكويت، ع298، نوفمبر 2003. جابر عصفور، نظريات معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998 .
8- فكتور إيرليخ، الشكلانية الروسية، تر: الولي محمد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000.